الفلسفة الشرقية القديمة، كونفوشيوس نموذجا

Ancient Eastern philosophy, Confucius as a model

شروف محمد ـ جامعة باتنة1

ملخص

يهدف البحث إلى سبر كنه الفكر الشرقي القديم من خلال محاولة الكشف عن طبيعته، والتركيز بشكل خاص على فكر كونفوشيوس، كونه واحدا من قامات الفكر الشرقي القديم الذي يعود إلى بدايات التاريخ الصيني، وما زالت تأثيراته ممتدة حتى المرحلة المعاصرة، من خلال ما يسمى بالكونفوشيوسية الجديدة، وهذا من أجل الفصل في قضية جدالية فحواها: هل الفكر الشرقي القديم يرقى إلى مستوى الفلسفة التأملية، أم أنه كان مجرد فكر عملي لحظي؟

الكلمات المفتاحية: الفكر الشرقي القديم، كونفوشيوس، الكونفوشيوسية المعاصرة، الفلسفة التأملية.

Abstract :

participants, Exclusion and exclusion that produce only fundamentalism, violence and terrorism

The ancient Far East defined the method of philosophical thought based on theoretical contemplation, trying to diagnose the causes of degeneration, which was driven by the ambitions of politicians and the corruption of society. This philosophy was characterized by a humanistic tone of Confucius in the idea of open class. In addition to the above, The idealism advocated by Confucius through the above-mentioned principles, which is why all the philosophers who philosophically founded states and ideal republics have been.

Keywords: ancient Far East, philosophical thought, Confucius, Confucius thought.

مقدمة:

يتناول هذا البحث، واحدة من أهم فترات التاريخ الإنساني، زمنيا ومكانيا، وتعود الأهمية الزمنية، إلى أن الفكر (الفلسفة، تعليق الحكم، حتى يتم الاتفاق على ذلك) الشرقي القديم، يعتبر أولى مغامرات الإنسان، وإن اتفقنا مع نتائج بعض الدراسات الغربية (على غرار دراسة "**غوبينو**" الموسومة بعنوان: **بحث في تفاوت العروق البشرية***) يمكننا القول بأن هذه المرحلة هي مرحلة طفولة الإنسانية على الكوكب، بكل ما تحمله كلمة طفولة من معاني الفطرة والسذاجة والقصور.

كما تعود أهمية هذه المرحلة من الناحية الجغرافية إلى أن منطقة الشرق، تعتبر مهبط الرسالات السماوية، ومنبت العديد من الحضارات؛ كالهند والصين وبابل. والإشكالية الرئيسة التي تواجه دارس الشرق القديم، في البداية هي: **هل يوجد فكر أم فلسفة في هذه الفترة من تاريخ الإنسانية؟** لأن الغرب الحديث يعتبر أن الفلسفة إنما بدأت مع اليونان، وشوه التاريخ ليتماشى وهذه الفكرة التي لا يسندها إلا إدعاؤه، المفضي إلى نقاء الجنس الأبيض أصلا وفكرا، بما يعضد فكرة المركزية الغربية حيث:"يشير كثير من كتاب الغرب إلى الحضارة الإغريقية كما لو كانت حدثا فريدا تتضاءل إلى جانبه ما قدمته كل حضارات الشرق القديم...وقد مال أشياع هذا الرأي تدريجيا باتجاه فكرة "المعجزة اليونانية" و"أصالة الفكر اليوناني" و"الشعاع الخاطف" في بحر الظلمات، وينتهي أصحاب الصورة المتطرفة لهذا الرأي، إلى جعل علوم وفكر اليونان الطبيعيين نتاج العقل اليوناني الخالص"[1].

غير أن جون كولر مؤلف كتاب "**الفكر الشرقي القديم**" يقف على طرف النقيض مما تذهب إليه مزاعم النظرة العرقية، التي تختزل الحضارة في الإنسان

*- تخلص هذه الدراسة العرقية إلى أن العروق الدنيا ليست مؤهلة لبناء حضارة، وإنما خلقت بوصفها عبيدا للعروق العليا، وأي اعتراض على ذلك هو معارضة لقوانين الطبيعة، وإلى الفكرة ذاتها يذهب أرسطو...وهذه النظرة كانت بمثابة النسغ المغذي للنزعة الاستعمارية في أوربا، مع كرومر، هتلر...

[1] جمال المرزوقي. الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط 1، 2001، ص 5.

الأبيض، وتقول بعجز الآخر عن إيجاد فلسفة قمينة بحل مشكلات الإنسان وفهم وجوده وعالمه.

كما يقف هيغل أيضا إلى جانب جون كولر حين يقول:"إن الأصول الأولى للحضارة اليونانية كانت مرتبطة بقدوم الأجانب إليها، وكان الإغريق يشعرون تجاههم بشيء من الامتنان"[2].

وإذا كانت الفلسفة في عمومها بحث في مشكلات الإنسان، فمن غير العدل أن ننفيها عن الشعوب القديمة، لأن حكما كهذا يتجاهل الهوة التاريخية التي تفصل بيننا وبين تلك الحقب الموغلة في التاريخ، فعاداتنا وتقاليدنا اليوم تختلف عن عادات وتقاليد أسلافنا القدماء، وعليه نفترض جوازا وجود فلسفة شرقية، وإن لم ترق إلى مستوى غيرها من الفلسفات، ولم يبلغ مداها ما بلغته الفلسفة اليونانية مثلا، وهذا موضوع آخر يدخل في إطار الدراسات المقارنة.

وتجدر الإشارة إلى أن البحث سيقتصر على دراسة الشرق الأقصى القديم، وتستثني الشرق الأدنى، لما يوجد من اختلاف وتمايز بينهما في البيئة، واللغة، والثقافة، والدين والعرق وما إليها.

ـ أهمية الدراسة:

تستند الدراسة إلى فرضية أن الفكر الإنساني فكر تراكمي، لا وجود في تاريخه لطفرات أو انطلاق من فراغ. وإذا ما تحققت هذه الفرضية فستكون هي الأرضية لبناء مجتمع إنساني يسوده التفاهم وتنصهر فيه كل الفروقات العرقية والدينية والثقافية في بوتقة الإنسانية.

ـ مشكلة الدراسة:

إن الإنسانية اليوم في أمس الحاجة إلى بناء مستقبل إنساني مشترك، فالمصالح والمصائر لا بد وأن تتوحد وتتحد، من أجل عيش مشترك قوامه التفاهم، ولن

[2] - Hegel G.W.F : The Philosophy of History, translate by : J. Sibree.M.A, Batoche Books, Kitchener,Ontario, Canada, 2001,p288.

يتأتى هذا إلا ببحث التاريخ الإنساني واستخلاص الدروس والعبر منه، وتثمين المشترك فيه، ومحاولة تقريب المختلف منه، ونبذ كل صور الإقصاء والإبعاد التي لا تنتج إلا الأصولية والعنف والإرهاب.

وهذا المشروع ترتفع أساساته على فرضية تراكمية الفكر الإنساني، في مقابل الدعوة القائلة بالقطيعة التي تتغذى منها النظرة التي سبقت معنا في تضاعيف المقدمة والتي تقول بالمعجزة اليونانية.وتقودنا هذه الجدلية إلى الوقوف على التساؤل التالي: **هل توجد فلسفة شرقية قديمة أم لا؟**

ـ الأسئلة الفرعية:

تندرج تحت الإشكالية الرئيسية مجموعة من الأسئلة نوردها على النحو التالي:

- ما هو الفكر؟
- ما هي الفلسفة؟
- ما هي طبيعة الفكر الشرقي القديم؟
- ما هي الطاوية؟
- ما هي الكونفوشيوسية؟

ـ منهجية الدراسة:

اعتمدت الدراسة على المنهج التحليلي، لأنه الأنسب لمثل هذه المواضيع. وتجدر الإشارة إلى أن المنهج التحليلي المتبع هنا قائم على النقد والاستنباط كأداتين منهجيتين، فالنقد يساعدنا على غربلة الأفكار والرؤى المعروضة وتمييز غثها من سمينها، والاستنباط من خلال استخلاص النتائج انطلاقا من العام إلى الخاص.

1- في معنى الفكر:

يأتي ذكر كلمة فكر في المعجم الوسيط بمعنى: فكر في الأمر: أعمل الخاطر فيه وتأمله، والفكر (جمع أفكار): أعمل الخاطر في أمر لحله، أو لإدراكه، ما يخطر بالعقل من المعاني، ويقال (شارد الفكر) أي شارد الذهن أو غافل عما يجري حوله.

الفكرة(جمع فكر): إعمال الخاطر في الأمر، الخاطرة الذهنية؛ ما يخطر بالعقل من معاني[3].

وجاء في **لسان العرب لابن منظور**: فكر: الفَكْرُ والفِكْرُ: إعمال الخاطر في الشيء؛ قال سيبويه: ولا يجمع الفكر ولا العلم ولا النظر، قال: وقد حكى **ابن دريد** في جمعه أفكارا. والفكرة: كالفكر، وقد فَكَرَ في الشيء، وأَفْكَرَ فيه وتفكر بمعنى، ورجل فكير، وفيكر، كثير الفكر. **(الليث)**: التفكر اسم التفكير، ومن العرب من يقول الفكر والفكرة والفكرى.**(الجوهري)**: التفكر التأمل، والاسم الفكر والفكرة، والمصدر الفكر، بالفتح، قال(**يعقوب)**: يقال: ليس لي في هذا الأمر فكر؛ أي ليس لي فيه حاجة؛ قال: والفتح فيه أفصح من الكسر.[4]

وفي **المعجم الفلسفي** لـ**(جميل صليبا)**، نجد أن " الفكر، بالفرنسية Pensée ، وبالانجليزية Thought، وباللاتينية Cogitatio، ويعني إعمال العقل في الأشياء للوصول إلى معرفتها. ويطلق بالمعنى العام على كل ظاهرة من ظواهر الحياة العقلية. وهو مرادف للنظر العقلي(Réflexion)، والتأمل (Méditation) ومقابل للحدس (Intuition). وللفكر عند الفلاسفة ثلاث معان:

الأول: حركة النفس في المعقولات سواء كانت بطلب أو بغير طلب، أو كانت من المطالب إلى المبادئ أو من المبادئ إلى المطالب(المبدأ: الحد أو المقدمة)(المطلب: النتيجة)، وهذا المعنى الذي يتضمن معنى الحركة يخرج الحدس، لأن الحدس إنما هو انتقال من المبادئ إلى المطالب دفعة لا تدريجيا، أما الفكر فهو حركة وانتقال، والأولى أن يشترط القصد(النية)، لأن حركة النفس في المعقولات بلا اختيار، كما في المنام، لا تسمى فكرا.

---

[3]- ناصر سيد أحمد وآخرون: **المعجم الوسيط**، دار إحياء التراث العربي، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص 407.

[4]- ابن منظور: **لسان العرب**، المجلد الخامس، الغين-اللام، ج39، باب الفاء، ص 3451، دار المعارف، القاهرة.

والثاني: حركة النفس في المعقولات، مبتدئة من المطلوب المتصور إلى مبادئه الموصلة إليه، إلى أن تجدها وترتبها، فترجع منها إلى المطلوب، فالفكر بهذا المعنى يشمل حركتين...

والثالث: هو الحركة الأولى من هاتين الحركتين، أعني الحركة من المطالب إلى المبادئ، من غير أن توجد الحركة الثانية معها، وهذا هو الفكر الذي يقابل الحدس تقابلا يشبه الصعود والهبوط..."[5]

وفي كتاب **التعريفات للجرجاني** في باب الفاء (الفاء مع الكاف): الفكر: ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول.[6]

ويقول **ابن سيناء**: "وأعني بالفكر ههنا ما يكون عند إجماع الإنسان أن ينتقل عن أمور حاضرة في ذهنه، متصورة أو مصدق بها تصديقا علميا، أو ظنيا، أو وضعا وتسليما إلى أمور غير حاضرة فيه، وهذا الانتقال لا يخلو من ترتيب... "[7].

كما جاء في **موسوعة لالاند الفلسفية**: فكر، فكرة/"Pensée": يمكن أن تقال هذه الكلمة، في كل واحد من معانيها، على مجمل الوقائع المعتبرة (الفكر) وعلى كل منها على حدة(فكرة).

أ ـ بالمعنى الأوسع، تشمل كل ظواهر العقل. "ما هو شيء يفكر؟" إنه شيء يرتاب، يعني، يتصور، يقرر، يريد ولا يريد، ويتخيل أيضا ويشعر. وهذا التعريف مأخوذ من كتاب التأملات لديكارت، وقد تجاوز الحاضر هذا التعريف لأنه يدرك في الفكر بعض أحوال النفس كالتخيل والإدراك والإحساس...

ب ـ بنحو عادي أكثر تقال عن كل الظواهر المعرفية (في مقابل المشاعر والمشيئات) عندئذ يكون الفكر مرادفا للعقل وللعاقلة.

---

[5]- جميل صليبا: **المعجم الفلسفي**، ج 02، من (ط) إلى (ي)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982، ص ص 154- 156.

[6]- علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني: **معجم التعريفات**، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، مصر، ص 142.

[7]- أبو علي بن سيناء: **الإشارات والتنبيهات**، القسم الأول، شرح: نصر الدين الطوسي، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف القاهرة، ط 03، ص ص 119-125

ج - بالمعنى الأخص تقال عن الإدراك وعن العقل من حيث أنهما يسمحان بفهم ما يشكل مادة المعرفة، ومن حيث إنهما يشكلان مادة توليفية أرفع من الإدراك الصوري، ومن الذاكرة أو الخائلة.[8]

إذن يوجد شبه إجماع بين اللغويين، حول كلمة (فكر)، على أن الفكر، يعني الانتقال والحركة العقلية من مقدمات معلومة إلى نتائج مجهولة، وهو بفعل هذه الحركة يعني إعمال العقل، من أجل بلوغ نتيجة عملية، أو تحصيل معرفة، وقد يكون لهذا العمل أو لهذه المعرفة غرض دنيوي أو ديني، جمعي أو فردي. من خلال هذا التوصيف لا يمكن أن ننفي الفكر وفعل التفكير عن أي أمة أو شعب أو ثقافة، مهما كانت موغلة في القدم. فلا فرق هنا بين أمة وأخرى ولا بين فرد وآخر داخل نفس المجموعة البشرية، فالكل يفكر، والكل يملك فكرا. الفرق محصور في اختلاف المشاكل، فمشاكل البدوي، ليست مشاكل واهتمامات ساكن الحضر، وهكذا دواليك يمكن حصر ما لانهاية لهذه الأمثلة.

2- في معنى الفلسفة:

تتفق كل الدراسات على أن كلمة "فلسفة" كلمة يونانية الأصل، مركبة من شقين "فيلو" وتعني (محبة) و"صوفيا" وتعني (حكمة)؛ وعليه تساوي التركيبة "محبة الحكمة". وتشير الكلمة في اللغة العربية إلى: "النظر الصحيح، وإلى العمل المتقن، فهي إذن تدل على ممارسة التفكير الدقيق القائم على البرهان، وعلى مزاولة العمل المتقن المحكم، ويصف القرآن الكريم الحكمة بأنها خير**(البقرة/ الآية: 269)** "[9] ،ويعرفها **جميل صليبا** على أنها: "لفظ مشتق من اليونانية، وأصله(فيلا – صوفيا) ومعناه محبة الحكمة، ويطلق على العلم بحقائق الأشياء، والعمل بما هو أصلح...ومن معاني الفلسفة إطلاقها على الاستعداد الفكري الذي يجعل صاحبه قادرا على النظر

---

[8]- أندريه لالاند: **موسوعة لالاند الفلسفية**، ترجمة: خليل أحمد خليل، المجلد الأول A-G ، منشورات عويدات بيروت، باريس، ط2، 2001، ص 955. ولمزيد حول الفكرة أنظر المرجع نفسه: مادة Idée فكرة، ص ص: 595- 604.

[9]- عمار الطالبي: **مدخل إلى عالم الفلسفة**، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006، ص 13

إلى الأشياء نظرة متعالية، قادرا على تقبل طوارق الحدثان(الحدوث)بكل ثقة وسكينة واطمئنان، والفلسفة بهذا المعنى مرادفة للحكمة"[10].

وتعريف الفلسفة من المواضيع الخلافية التي لم يتم الإجماع على تعريف جامع مانع لها، فلكل فيلسوف أو مذهب أو مدرسة، تعريف خاص يتماشى وموقف الفيلسوف من مشكلات الحياة وظواهر الكون، ومثال ذلك **تشارلز موريس** في كتابه "**رواد الفلسفة الأمريكية**" الذي يعرف الفلسفة وفقا وتماشيا مع المذهب البراغماتي فيقول: "أنها (أي الفلسفة) بحث أشخاص معينين موجه نحو حل مشكلات معينة لديهم تحت ظروف اجتماعية وشخصية بذاتها"[11]، وقبل هذا يستشهد بقول **ولاس ستيفن** الذي يرى بأن القصيدة صرخة الداعي أو الحاجة التي أملت على الشاعر أن يكتبها (يصرخها).

هذا الاختلاف لا يفسد للود قضية، وإنما يزيد الفلسفة قوة ووضوحا وتميزا، في فهم الإنسان والعالم. ويجمع أغلب الدارسين على أن الفلسفة ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد، في بلاد اليونان، وأن الفيلسوف الطبيعي "**طاليس**" كان أو من تفلسف. وهو ما ذهب إليه:""**أرسطو**" من القدماء (367- 322 ق م) وتبعه الفيلسوف الإنجليزي "**برتراند راسلB.Russel** " وعدد كبير من المحدثين للفلسفة الغربية إلى أن أول من استخدم التفكير الفلسفي هو الفيلسوف اليوناني الطبيعي القديم" **طاليس Thales**""الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد"[12]. كما أن هناك من يرى ويعتقد أن **سقراط** كان أول من تفلسف، وآخر يعتقد أن الفلسفة الحقة إنما جاءت مع جهود بعض المدارس، ويقصد بها **(الأيونية، الإيلية والفيثاغورية)**.

وفي نظرنا لا يمكن أن نعتد بهذا الرأي لعدة أسباب، في طليعتها أن "الإنسان فيلسوف بطبعه"، فالروح الفلسفي مغروسة في طبيعة الإنسان وسليقته، وهو مفطور

---

[10]- جميل صليبا: **المعجم الفلسفي**، مرجع سابق، ص ص 160، 161.

[11]- تشارلز موريس: **رواد الفلسفة الأمريكية**، ترجمة: إبراهيم مصطفى إبراهيم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1996، ص15.

[12]- عمر التومي الشيباني: **مقدمة في الفلسفة الإسلامية**، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 12.

ومجبول على فعل التفلسف، وليس عضوا يتم اكتشافه، حتى نقول أن الفلسفة أو التفلسف كانت وقفا على فعل منفرد ومنعزل، كما أن الاختلاف في تحديد أول من تفلسف لا زال قائما، ولم يعقد الاتفاق حول ذلك، لأنه ضرب من الشطط والتخريف، وهي(الفلسفة) ليست ظاهرة أو قانونا في الطبيعة كما حدث مع **نيوتن**، زد على ذلك أنها ليست وحيا سماويا، أو إلهاما إلهيا، حتى ينفرد بها رسول أو نبي دون سائر الخلق.

وقريبا من هذا المعنى يعرفها **الجرجاني** على أنها:" التشبه بالإله، بحسب الطاقة البشرية، لتحصيل السعادة الأبدية، كما أمر **الصادق صلى الله عليه** وسلم في قوله: "**تخلقوا بأخلاق الله**"(**!**) أي تشبهوا به في الإحاطة بالمعلومات والتجرد عن الجسمانيات"[13]، وهذا تعبير عن مبحث من مباحث الفلسفة والأخلاق أكثر منه تعبير عن روح الفلسفة في عمومها، كما أن محقق الكتاب يعلق على الحديث الذي يسند به الجرجاني رأيه أنه حديث موضوع، ولا أثر له في الأثر، وربما هي من شطحات الصوفية المعروفة، أما **وليم جيمس** فيعتبر الفلسفة هي: "التفكير الوحيد بالأشياء في أفضل طريقة شاملة مدركة"[14].

ونلاحظ أن النزعة البراغماتية طاغية على هذا التعريف، فالفلسفة تدرس مواضيع من قبيل الله، الخلود، النفس والمصير... وغيرها، وهذه المواضيع أبعد ما تكون عن الشيئية والتشيؤ. أو كيف يسمي وليم جيمس وأشياعه المبحث الذي يدرس هذه المواضيع.

ومجمل القول أن الفلسفة لم تأت كما سبق وقلنا وحيا منزلا ولا حدسا مباشرا، بل كانت تجربة من تجارب الإنسانية، اختمرت عجينتها على مراحل، ومرت بفتوحات وإخفاقات وعرفت انطلاقات وعانت انتكاسات، إلى أن وصلت مرحلة النضج مع اليونانيين المتأخرين، لأن اليونانيين الأوائل، امتزجت حياتهم وفكرهم بالخرافة

---

[13]- الجرجاني: **معجم التعريفات**، مرجع سابق، ص 142.

[14]- ول ديورانت: **قصة الفلسفة**، ترجمة: فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ، ط06، 1988، ص616.

والأسطورة(إذا ما نظرنا للأسطورة بمنظور سلبي)، ويشهد على ذلك ألوان التعبير المعروفة حينذاك في الشعر والقصص والرواية، وخير مثال على ذلك أعمال **هوميروس وهيرودوت.**

وخير مثال على أن التفكير الفلسفي، جبلة في الإنسان، حادثة **إبراهيم الخليل**، في بحثه عن إله يشفي سؤله المؤرق، من خالق هذا الكون الرحب؟ إذ قاده شكه وسؤاله، إلى أن الله خالق هذا الكون، كما أن قصة **حي بن يقظان**، من التراث تروي ما يمكن أن ندلل به على أن التفكير الفلسفي ليس حكرا على اليونان، وأن بداية التأريخ للفلسفة من المرحلة اليونانية كلام مردود لأنه رأي متهافت.

إن الحقيقة الأقرب إلى الصواب هي أن الفكر الإنساني فكر تراكمي، بمعنى حتى لو كان لليونان السبق في التعرف على الأسلوب الفلسفي، فهذا لا ينفي بحال من الأحوال تأثيرات باقي الأمم والشعوب، على الفكر اليوناني، ولا يمكن أن نبخس الحضارات الشرقية القديمة حقها في تشييد صرح الفلسفة العظيم. وهو ما جعل: "الكثير من مؤرخي الفلسفة من الشرقيين وبعض الغربيين المنصفين أنفسهم يرفضونه ويرتدون بنشأة الفلسفة إلى تراث الشرق القديم... ولا غنى لمؤرخ الفلسفة من دراسة الفكر الشرقي والحياة الروحية الشرقية ودراسة الحضارات الشرقية المختلفة ..."[15]، كما أن التراث الشرقي يزخر بأمثلة، تبطل مزاعم الموقف القائل بأن الفلسفة إنما ظهرت مع اليونان، ومن بين هذه الأمثلة ما أورده مؤلف أطلس الفلسفة في معرض حديثه عن **الأوبانيشاد*** في قوله:" ثمة شاهد شعري على التفكير الفلسفي المتمثل في المسألة التي تبحث في أصل الوجود نجده في نشيد الخلق الشهير في **الرغفيدا***: الواحد أساس الكون، وهو يسبق الفصل بين الوجود واللاوجود وظهور الآلهة.(في البداية لم يكن اللاوجود ولا الوجود/ ولا خلاء ولا سماء فوقه/ من أوجد العالم، من أحاط به؟/ أين

---

[15]- عمر التومي الشيباني: **مقدمة في الفلسفة الإسلامية**، مرجع سابق، ص 13.

*- الأوبانيشاد: عبارة عن نصوص نفسيرية لعقيدة "الفيدا"، والأوبانيشاد تحوي الموضوعات الأساسية في الفلسفة الهندية، إلى جانب البراهمانا، لمزيد حول الموضوع أنظر: أطلس الفلسفة، ص 15.

*- الرغفيدا: أناشيد إبتهالية وهي قسم من أقسام الفيدا الأربعة: الرغفيدا، سامافيدا(ترانيم)، ياجور-فيدا(صلوات تتلى عند تقديم الأضحيات)، أتهارفا-فيدا(عبارات يستخدمها السحرة).

كانت الهوة السحيقة، أين كان البحر؟ لم يكن الموت آنذاك موجودا ولا الأزلية/ لم يكن الليل موجودا والنهار لم يكن باديا/ لقد سرت أنفاس دون رياح في البدايات/الواحد، وخلافه لم يكن أحد موجودا) "[16].

مما تقدم، يمكننا القول، بأنه رغم اختلاف التعاريف حول الفلسفة، وتباين المواقف والآراء حول نشأتها وبداياتها، إلا أن هذا لم ولن يؤثر في قيمة الفلسفة، كمنهج وكموضوع، وستظل ضالة الإنسان مادام ضالا هاهنا، ولن نجد أجمع وأوعى مما قاله الفيلسوف **كارل ياسبرس:** في الفلسفة الأسئلة أهم من الأجوبة، بالفعل أصل الفلسفة سؤال، وجوهرها سؤال، وديمومتها سؤال، وهذا ما يؤكد أن الإنسانية عرفت الفلسفة مع أول سؤال طرحه أول إنسان، ومن هذا وذلك نخلص إلى أن الفلسفة علم وعمل ومعرفة شاملة.

3- طبيعة الفكر الشرقي القديم:

يقول **كرولي:** "ليس للإنسان البدائي إلا أسلوب واحد للتفكير، وأسلوب واحد للتعبير، وأسلوب واحد للكلام– الأسلوب الشخصي"[17]، والمقصود هنا أن الإنسان القديم كان يعامل العالم من حوله وكأنه جزء منه، لم يميز بين الذات والموضوع في مطارحاته الفكرية، والأسلوب الشخصي يقابله الأسلوب الروحي، والفرق بين أسلوب تفكير القدماء عنا، هو أنهم لم يميزوا بين " الأنا " و" الأنت "، بين الذات والموضوع بين الإنسان والكون، واعتبروا الإنسان جزءً من الكون، فكان فكرا منفعلا في أغلب الحالات.

ماذا نقصد بذلك؟ نقصد أن معرفة هوية الشيء تنطوي تحت ما يسميه هـ . فرانكفورت بالإدراك الفعال، في حين فهم الشيء هو انطباع منفعل:"عندما يعين الإنسان هوية شيء ما فهو فعال، ولكن عندما يفهم الإنسان أو الحيوان رفيقا له فهو

---

[16]- بيتر كونزمان وآخرون: **أطلس- dtv الفلسفة**، ترجمة: المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، ط02، 2007، ص17.

[17]- هـ، فرانكفورت وآخرون: **ما قبل الفلسفة، الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى**، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط 1980،2، ص 16.

جوهريا منفعل" ويقول في موضع آخر ما معناه أن الإنسان له شرف الاشتراك والحيوان في النوع الثاني من الإدراك، أو فهم عواطف الآخرين من حولنا.

لا يمكن بحال من الأحوال نفي صفة التفكير عن إنسان الشرق القديم، إلا أن طريقة التفكير وما تولده(طبيعة الفكر) هي التي يمكن أن نصفها بالسذاجة، وهي التي أعطت الحجة لبعض الدارسين لوصف هذه المرحلة من تاريخ الإنسانية بالبدائية، وطبيعة التفكير لدى الشرقيين القدامى، فوصف الحوادث والظواهر لم يكن كشفا للروابط والعلاقات المنطقية والعلمية التي تتعالق بواسطتها أجزاء ظاهرة ما، بل بذهنية قصصية، خرافية أسطورية، فالبابليون مثلا كانوا "يفسرون" ظاهرة هطول المطر من خلال وساطة :"الطير العملاقي "**إمدوغود**" إذ جاء لإنقاذهم. فكسا السماء بما في جناحيه من سحب الزوابع السوداء، والتهم "**ثور السماء**" الذي كان قد أحرق الزرع بأنفاسه الملتهبة"[18].

4- الإرث الفلسفي الصيني القديم:

تقوم الحضارة الصينية وثقافتها على مبادئ الكونفوشيوسية، والطاوية والكونفوشيوسية الجديدة. وهذا الإرث الذي يعتز به الصينيون ويفاخرون به إلى درجة أنه "... قرابة القرن التاسع عشر سئل عالم صيني هل يعتقد أن طلب العلم يتحقق بالتنقل في البلاد خارج الصين، فكان جوابه أن من كان على علم بالدراسات الصينية القديمة ليس به حاجة إلى مزيد من العلم"[19].

كما أن لها ارتباطا وثيقا بالأخلاق والسياسة والدين، ويعزى ذلك بالأساس للوظيفة التربوية المنوطة بالفلسفة في حضارة الصين قديما، ويرى بعض الدارسين أن العقل الصيني، استطاع أن يؤسس لفلسفة ذات شأن لا يستهان به "وقد كانت فلسفة **(أي الفلسفة الصينية)** خصبة ومتنوعة عالجت مشكلات فلسفية مهمة مثل أصل الكون، والطبيعة الإنسانية، والسياسة ومقاييس الحكم، ومبادئ الأخلاق العملية

[18]- هـ، فرانكفورت وآخرون: **ما قبل الفلسفة، الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى**، ص 17.
[19] هـ،ج، كريل:**الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي تونج**، ترجمة:عبد الحميد سليم،الهيئة المصرية للتأليف والنشر، 1971،ص 9.

وأصولها النظرية..."[20]. بمعنى أن الفلسفة عند الصينيين القدماء استطاعت أن تطرق معظم مباحث الفلسفة العامة المعروفة بين دارسيها؛ كالأنطولوجيا والإبستيمولوجيا، والأكسيولوجيا والكوسمولوجيا. لتكون فكرة نزول الفلسفة من السماء إلى الأرض، مع مقولة سقراط الشهيرة "اعرف نفسك بنفسك" مجرد ادعاء، لأن العقل الصيني في القديم خَبِرَ نزعات نفسية إنسانية مختلفة، منها التفاؤلية والتشاؤمية، وحياة الزهد والتصوف... وفي هذا تفلسف حكماء الصين، وناقشوا فكرة الطبيعة الإنسانية، وبحثوا سبل تقويمها وتسديدها، وما يستتبع ذلك من دراسة للنفس الإنسانية، وفهم أسرارها وسبر أغوارها:"ولم يكن الهدف الرئيسي للفلسفة الصينية، هو في المقام الأول فهم العالم، وإنما جعل الناس عظماء"[21].

تعد الكونفوشيوسية، أعرق مدرسة فلسفية في الصين. وقد بلغ عدد هذه المدارس – في تقدير بعض الباحثين* – مائة مدرسة، وقد امتدت المدرسة الكونفوشيوسية من القرن السادس إلى الثالث قبل الميلاد، ويعد الكثير من الدارسين والمختصين في الفكر الشرقي القديم سيما الصيني منه، كونفوشيوس زعيم حكماء الصين القدماء* بلا منازع، بل إن الصينيين عدوه في مصاف الأنبياء، وآمنوا به وبما جاء به، كما أن تعاليم كونفوشيوس سادت بلاد الصين أكثر من خمسة وعشرين قرنا من الزمن.

[20]- محمد عبد الله الشرقاوي: **مدخل نقدي لدراسة الفلسفة**، دار الجيل بيروت، مكتبة الزهراء، جامعة القاهرة، ط02، 1990، ص 60.

[21]- جون كولر: **الفكر الشرقي القديم**، مرجع سابق، ص 311.

*- الفكرة تعود إلى الملقب بأبي التاريخ الصيني تسو- ماشين، أنظر: صلاح بسيوني رسلان: كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، www.kotobarabia.com

*- صلاح بسيوني: **كونفوشيوس، رائد الفكر الإنساني**، www.kotobarabia.com ، ص 61.

أهم المدارس الفلسفية في الصين القديمة:

أ- الطاوية:

اختلفت الدراسات حول مؤسس الطاوية أو الداوية أو التاوجيا، وهي أسماء لمسمى واحد Daoism. ففي الوقت الذي يردها فيه م.جون سابلي مدرس الأديان الشرقية في كلية اللاهوت الأسقفية، إلى "هو جن تاو Hu Jin Tao"، يرى آخرون أمثال جون كولر أن" لي تان" هو نفسه "لاوتسه" أو " لاو تسو" "Lao Tzu "، ويذهب فريق ثالث إلى القول بأن "ياو تشو" هو مؤسس الفلسفة الطاوية. ومهما يكن من أمر التأسيس للفلسفة الطاوية، فإن فون يولان[22]، يعدد ثلاث مراحل مرت بها هذه الفلسفة في بدايتاها الأولى، وهي على النحو التالي:

ـ طور العزلة: وفيه دعا ياو تشو إلى الهروب من الناس واعتزالهم في الجبال والغابات، والعيش على طريقة النساك والزهاد.

ـ طور العيش في وفاق مع الطبيعة: وفي هذا الطور يدعو لاوتسه أتباعه إلى محاولة فهم النواميس الثابتة، وتنظيم المجتمع والأفراد بموجب هذه النواميس.

ـ طور التطابق أو التجاوز: وهنا يذهب تشوانغ تسه إلى التخلي عن الهروب والعزلة، ومغالبة الفروق والتمييز بين الحياة والموت، وبين الأنا والآخر، والبحث عن سبل التطابق بين الثنائيات المتضادة، من أجل تجاوز العالم المادي والارتقاء إلى العالم الروحي، مصير النفس الإنسانية. وتعود كلمة طاو إلى اللغة الصينية ومعناها الطريق أو النهج[23] أو الصراط[24]. وتنمو الطاو عند "لاوتسه" وتلامذته، فيصبح المبدأ والمآل، المبدأ الذي تأتي منه كل الأشياء، والمآل الذي ترتد إليه كل الأشياء"[25]: "إنه فوق كل شيء، وخلف كل شيء، وتحت كل شيء، والرحم التي انبثقت وتعود إليها كل حياة"[26].

---

[22]- أنظر: لاوتسه/تشوانغ تسه: **كتاب التاو**، ترجمة ودراسة: هادي العلوي، دار الكنوز الأدبية، بيروت، لبنان، ط01، 1995.

[23]- هوستن سميث: **أديان العالم**، ترجمة: سعد رستم، دار الجسور الثقافية، حلب، سورية، ط03، 2007، ص 302.

[24]- لاوتسه/تشوانغ تسه: مرجع سابق، ص 15.

[25]- المرجع نفسه، ص 15.

[26]- هوستن سميث: مرجع سابق، ص 303.

وللطاو ثلاثة معان، يعددها هوستن سميث على النحو الآتي[27]:

- **الطاو**: تعني طريق الحقيقة المطلقة، وهو فوق الفهم والإدراك.
- **الطاو**: مع أن الطاو تعني الحقيقة المطلقة أو المطلق، إلا أنها أيضا فكرة باطنية ذاتية، وهو بهذا المعنى أشبه بروح الكون.
- **الطاو**: بمعنى التطابق التام بين طاو الكون ومنهج النفس الإنسانية.

وهذا التطابق هو أحد أهم ميزات الطاوية، من خلال نسبوية القيم التي تقول بها الطاوية، وفيها تتطابق الثنائيات المتضادة، تطابق اللزوم. فالشر بناء على الطبيعة المزدوجة للأشياء، يأتي من قولنا بأن هذه الأمر خير. ويعبر عنها بلغة الطاو بـ"الين واليانغ Yin and Yang" النقيضين المتناغمين في واحد حيث :"تختصر الثنائية كل تناقضات الحياة الرئيسية: الخير/الشر، الفاعل/المنفعل، الإيجابي/السلبي، النور/الظلام، الصيف/الشتاء، الذكر/الأنثى، ولكن رغم أن تلك الأنصاف في حالة توتر، إلا أنها ليست متعارضة بشكل تام؛ إنها تكمل بعضها الآخر وتوازنه، كل نصف يغزو النصف الآخر، ويسكن في أعماق مجال نظيره"[28].

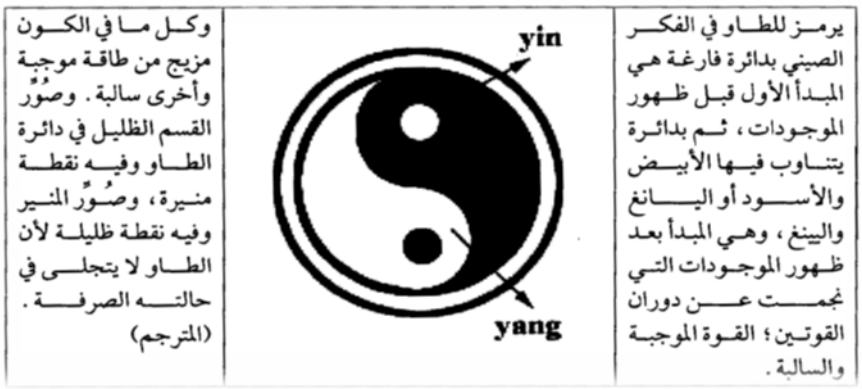

الشكل 01:هوستن سميث: أديان العالم، ص 325.

[27]- هيوستن سميث: المرجع نفسه ، ص ص 303، 304.
[28]- المرجع السابق، ص 325.

ب- الكنفوشيوسية:

من أجل فهم الكونفوشيوسية بشكل دقيق لا بد من العودة إلى الأوضاع السائدة في الصين ما قبل كونفوشيوس، أين تجمع أغلب الدراسات على أن التاريخ الفعلي المسجل يبدأ مع أسرة شانج Shang*. وفي هذه الفترة عرفت الصين حضارة متقدمة، انتهت بغزو شعب تشو البربري (البدائي) لها، ومع مرور الزمن، تدهورت الأوضاع، ونشبت الخلافات والصراعات في معظم أجزاء الصين: "وشكل العنف والتآمر الطابع السائد للساحة السياسية، وتغلبت النفعية على الأخلاق، وشكل الغش والخداع أساس المؤامرات"[29].

إن هذه الظروف التي طبعت المشهد في الحياة الصينية، والتي سبقت ميلاد كونفوشيوس بقرابة قرنيين من الزمن، كانت هي الداعي الأساسي لبروز نجم كونفوشيوس، الناقد/الرافض للأوضاع السائدة، كمصلح اجتماعي يرى:" أن مشكلات الشعب تنبع من السلطة الحاكمة، التي تمارس بغير مبدأ أخلاقي، ولمجرد تحقيق مصلحة الحاكم، ورفاهيته فحسب، فلا عجب إذن أن نجده يدعو إلى الإصلاحات الاجتماعية، التي من شأنها أن تسمح بأن تدار الحكومة لمصلحة الناس جميعا"[30].

ولد كونفوشيوس سنة 551 ق.م بمدينة "لو Lu" (تشوفو حاليا)، و بها مقر مؤسسة كونفوشيوس بالصين "بولاية "شانتونج Shantung"، وتوفي في مسقط رأسه سنة 479 ق.م. ويعود نسبه إلى أسرة من نبلاء الصين، ينحدر أصلها من الإمبراطور العظيم هوانغ–دي، وهو الإمبراطور الذي بنى صور الصين العظيم، وأمر بأن يدفن مع 8000 من الجنود مصنوعين من الصلصال، واشترط على النحاتين، بأن لا تتشابه وجوه التماثيل. وقد تم اكتشاف المقبرة سنة 1979، وعدت بحق أعجوبة العالم الثامنة.

وكلمة كونفوشيوس باللغة اللاتينية، اسم مركب من كلمتين كونج K'ung وهو اسم الأسرة التي ينتمي إليها كونفوشيوس، وفو–تسيه Fu Tze وتعني الأستاذ المبجل

*- تتضارب الروايات حول فترة حكم أسرة شانج.

[29]- جون كولر: **الفكر الشرقي القديم**، ترجمة: كامل يوسف حسين، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1995، ص 319.

[30]- المرجع نفسه، ص 319.

أو الحكيم أو الفيلسوف. وهو ابن لعلاقة غير شرعية، ولد لأب ناهز السبعين، وافته المنية تاركا ابنه ذو الثلاث سنوات مع أمه، التي ترعرع في كنفها كونفوشيوس في فاقة وفقر شديدين، ما أرغمه على العمل وقت فراغه من المدرسة لإعالة أسرته. لما بلغ التاسعة عشر تزوج، وبعد سنة من زواجه أنجب طفله الوحيد، لكن ما لبث أن طلق حياة الزوجية، ليتفرغ للحكمة وطلبها، وهو ما وافقه فيه، نيتشه، إذ يرى استحالة الفلسفة مع الزواج لما فيه من تبعات ومسؤوليات.

اشتغل في مناصب حكومية غير ذات بال، ولما ناهز الخمسين من العمر، شغل منصب وزير للشؤون العامة، ثم وزيرا للعدل، فرئيسا للوزراء، وفي مسقط رأسه "لو" التي صارت خلال فترة حكمه:"دولة نموذجية(اختفى فيها الانحلال والخيانة وانعدام الأمانة...إذا وقع شيء في الطريق لم يكن يلتقطه أحد)"[31]، وصارت ولاية "لو":"من أقوى الولايات وأغناها وأكثرها استقرارا وأمنا، مما أدى إلى حقد حكام الولايات الأخرى إذ كانت تخشى بأس ولاية "لو" فاتفق بعض الحكام على إرسال وفد نسائي يقوم بالرقص أمام حاكم لو ووزرائه"[32]، الأمر الذي أدى إلى إفساد أخلاق الحاكم وحاشيته، وتزعزعت أركان الحكم في مدينة " لو"، وتركت هذه الواقعة أثرا سيئا في نفس المعلم المبجل، وقال في النساء شعرا نصه كما يلي:

" احذر لسان المرأة

إنك لا شك ستلدغ منه إن عاجلا وإن آجلا

واحذر زيارة المرأة

إنها ستصيبك إن عاجلا وإن آجلا

هي هو !! هي هو !!

إنني سأرحل إلى مكان آخر"[33]

---

[31]- هوستن سميث: **أديان العالم**، مرجع سابق، ص 241.

[32]- حسن شحاته سعفان: **الكتب الخمسة لكنفوشيوس**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، 1995، ص 781.

[33]- المرجع نفسه، ص ص 781، 782

كما أفرد كونفوشيوس لتراث أجداده وقتا وجهدا، تكلل بتأليفه الكلاسيكيات الخمسة Five classics :"وهي مؤلفاته التي يعرض فيها، تاريخ الصين القديم، وأصول ديانات الأسر الصينية القديمة وعشائرها، وأصول الحكم السياسي فيها، والمبادئ التي كان يقوم عليها النظام السياسي"[34]، وإلى جانب هذه الكتب توجد أربعة كتب أخرى، كان قد ألفها تلامذة كونفوشيوس، وهي عبارة عن شروحات وهوامش لكتب معلمهم، والكتب التسعة* مجتمعة تمثل إرث المدرسة الكونفوشيوسية.

ب-1- فلسفة كونفوشيوس:

اهتم الصينيون قديما بالتعليم، لأنه الطريق الوحيد لتربية الفرد وتقويم سلوكياته وأفعاله. لذلك حض الملوك والأمراء شعوبهم على شغل أوقات فراغهم بالتفكير والتعلم والتعليم، عملا بالمثلين الصينيين القائلين:"إن التدريس نصف التعليم" وإن عمليتي التعليم والتعلم تذكي كل منهما الأخرى"[35]، ويعتبر النظام التعليمي في الصين القديمة من أرقى الأنظمة التعليمية التي عرفتها الإنسانية على امتداد تاريخها، بل إنه يتفق مع أحدث النظم التعليمية القائمة اليوم*.

وعن أهمية التعليم للإنسان، وتأثيره في سلوكه وتعاملاته اليومية يقول كونفوشيوس ما معناه أن التعلم يكسب الخبرة، التي تظهر عند ممارسة الحياة، وهي المتعة بحسب زعمه، أما السعادة فتكمن في تعليم الآخرين ما خبرته من الحياة فـ:" أن تتعلم وتمارس مرة أخرى ما اكتسبته يعد متعة أليس كذلك؟ لديك أصدقاء قدموا من بعيد (لتشاطر المعرفة) يعد سعادة أليس كذلك؟"[36].

---

[34]- المرجع نفسه، ص 782.

*- كتاب الأغاني أو الشعر(شيه تشينج/Shih Ching)، كتاب التاريخ (شو تشينج/ Shu Ching)، كتاب التغيرات(أي تشينج/ Ching-H)، حوليات الربيع والخريف(تشو تشو/ Chun Chiu)، كتاب الطقوس أو التقاليد(لي تشي/ Li chi). فصول في كتاب الطقوس(الأخلاق والسياسة)، فصول في كتاب الطقوس(الإنسجام المركزي)، المنتخبات، منسيوس(مؤلف ضخم يحوي سبعة كتب تعالج مذهب كونفوشيوس).

[35]- صلاح بسيوني رسلان: **كونفوشيوس؛ رائد الفكر**، مرجع سابق، ص 87.

*- لمزيد حول الفكرة: حسن شحاتة سعفان: **كونفوشيوس؛ نبي الصين**، مكتبة نهضة مصر، 1956، ص 98، وأيضا: صلاح بسيوني رسلان: **كونفوشيوس؛ رائد الفكر**، ص 87.

[36] **- اللون يو** بالعربية، الفصل الأول، 01 نظم:

يقول كونفوشيوس: "إن حب الإنسانية بدون حب للدراسة، يولد الجهل، وحب العلم بدون حب للدراسة يؤدي إلى الضلال وعدم التثبت، وحب الإخلاص بدون حب للدراسة يؤدي بصاحبه إلى أن يكون ضحية الخداع، وحب الاستقامة بلا دراسة يؤدي إلى الرعونة التي لا حدود لها، وحب الشجاعة بلا دراسة يؤدي إلى التمرد، وحب العزم والمثابرة بلا دراسة ينتهي بصاحبه إلى الخبل أو التعلق بفكرة متسلطة"[37]، ويقصد كونفوشيوس من وراء كلامه هذا أن الفضائل بدون تعلم ودرس تذوي وتذبل وتموت، فلا بد للفطرة من الخبرة التي تنميها وتذكيها وتطورها.

ولا يتأتى ذلك إلا بطيبة القلب أو "الجينJen"، ويقصد من وراء هذا المصطلح: الفضيلة، الإنسانية، الإحسان، والرجولة الحقة...: "والتعبير الإنجليزي Human Heartedness يوحي بأن جين هو ما يجعلنا إنسانيين، وأنها أمر متعلق بالشعور وكذلك بالتفكير، وأنها أساس العلاقات الإنسانية كافة"[38].

ويعد منهج كونفوشيوس وطريقته في تلقين تلامذته ومريديه فريدة من نوعها، إذ يعتمد المعلم المبجل أسلوب الأمثلة والحكم القصيرة المرتجلة، على خلاف سقراط الذي كان يعتمد أسلوب (الجدل)، وأفلاطون الذي كان يعتمد أسلوب (المحاورة)، وأرسطو الذي كان يعتمد أسلوب (المحاضرة) في بلاد الإغريق.

كما يذهب حسن شحاتة سعفان إلى أن كونفوشيوس سبق أرسطو في استعمال القياس المتتابع، وفيه تأتي نتائج القياس الأول مقدمات للقياس التالي، وهكذا دواليك، ومثال ذلك قول كونفوشيوس:"إذا فهم الإنسان طبيعة هذه الصفات الأخلاقية فإنه سيفهم كيف ينظم سلوكه الفردي والأخلاقي، وإذا فهم كيف ينظم سلوكه الفردي سيفهم كيف يحكم الناس، وإذا فهم كيف يحكم الناس فإنه سيفهم كيف يحكم الإمبراطوريات"[39].

---

http://www.confucius.org/lunyu/ad0101.htm

[37]- حسن شحاتة سعفان: **الكتب الخمسة لكنفوشيوس**، مرجع سابق، ص 785.

[38]- جون كولر: **الفكر الشرقي القديم**، مرجع سابق، ص 335.

[39]- حسن شحاتة سعفان: **الكتب الخمسة لكنفوشيوس** المرجع السابق، ص 785.

يمكننا القول بأن كونفوشيوس في طريقة تعليمه وتأمله في المجتمع وظواهره، نفذ إلى البنية الأساسية المركبة للمجتمع من خلال القياس المتتابع هذا، إذ توصل إلى أن صلاح الفرد من الناحية الأخلاقية يؤدي إلى صلاح الأسرة، التي تقوم في نظره على مبدأ "هيساو Hsiao" أو"الولاء البنوي"، وهو فضيلة توقير العائلة من طرف الأبناء، وليس يتوقف توقير الأبناء للأسرة الضيقة فقط، بل إن مبدأ "هيساو" بإمكانه أن يتسع ليطال المجتمع ككل، بل الإنسانية جمعاء، وعليه، فصلاح الأسرة مرهون به صلاح المجتمع، وعلى الحاكم أن يتحلى بأخلاق العامة ويزيد عنهم تسع التزامات، تؤهله لأن يصبح حاكما.

والحكم في نظر كونفوشيوس تفويض سماوي، إلا أن هذا التفويض ليس تفويضا أبديا، فمتى أحس المجتمع زيغ الحاكم عن التعاليم والمبادئ الأخلاقية، يحق للمجتمع عزل الحاكم، وهو ما يشير إليه في كتاب التاريخ بقوله:"أن توكيل السماء للحاكم ليس أبديا، وهذا يعني أن الحاكم يظل متمتعا بهذا التوكيل الإلهي طالما استخدم هذا التوكيل فيما يعود على شعبه بالخير، ويفقد الحاكم هذا التوكيل عندما يتبع سياسة الظلم"[40]، ويربط كونفوشيوس هذا التفويض بإرادة الله التي هي إرادة الشعب، وبالتالي لا يمكن للحاكم أن ينفرد بالحكم، لأن مصدره الله والشعب.

كما يشدد كونفوشيوس على ضرورة تعليم أبناء الشعب، من أجل إعدادهم وتأهيلهم لشغل المناصب والوظائف، وصفوتهم تعين في مناصب وزارية داخل الحكومة*،

ويلزم كونفوشيوس الحاكم بمداومة التعلم وتثقيف نفسه وتهذيب أخلاقه، لأنه القدوة لسائر أفراد المجتمع، فرقي أخلاق الحاكم تثبت مركزه وتدعم أركان حكمه، وعكس ذلك يدك أركان حكمه ويزعزع ثقة العامة في شخصه، ذلك أن" أخطاء الرجل

---

[40]- المرجع السابق، ص 788.

*أنظر:هالة أبو الفتوح أحمد: **فلسفة الأخلاق والسياسة، المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس**، ص 149 وما بعدها.

النبيل تشبه كسوف الشمس وخسوف القمر، فعندما يخطئ فإن العالم كله يرى ما فعله. وعندما يعمل الصالح يراه العالم كله"[41].

والفضائل التي ينبني عليها المجتمع، والتي لا بد من توافرها في علاقات أفراده بعضهم ببعض عشر فضائل، أوردها كونفوشيوس على النحو الآتي: "عطف الوالد على أولاده(إلا أن كونفوشيوس حرم ابنه الوحيد عطف الوالد على ولده بتطليقه لزوجته؟)، واحترام الابن أباه، ومعاملة الأخ الأكبر أخاه الأصغر باللين، وخضوع الأخ الأصغر للأكبر مع احترامه له، وتحلي الزوج بحسن الخلق مع زوجته، وطاعة الزوجة الزوج، وحسن معاملة الكبار للصغار، وطاعة الصغار للكبار، وحسن معاملة الحاكم لرعاياه وعطفه عليهم، وإخلاص الوزراء والولاة في أداء مهمتهم"[42].

والأخلاق في فلسفة كونفوشيوس هي المبدأ الذي تقوم عليه السياسة والمجتمع، وأساس أمنه واستقراره، ولا يتم ذلك إلا من خلال الانسجام الداخلي الذي يضمن الانسجام الخارجي بين الحاكم والمجتمع من جهة، وبين أفراد المجتمع فيما بينهم. وهذان الشرطان لازمان لا غنى عنهما في نشر الفضيلة والأخلاق داخل أي مجتمع كان. ويرفض فرض النظام بالقوة والعقاب ويقول في ذلك:"إنك إذا قدت الناس وفق قوانين إجبارية وهددتهم بالعقاب، فقد يحاولون اتقاء العقاب، ولكن لن يكون لديهم الشعور بالشرف، لكنك إذا قدتهم بالفضيلة ونظمت شؤونهم بالتربية فإن علاقاتهم ستقوم على أساس من الشرف والاحترام"[43].

وقد أولى كونفوشيوس اهتماما خاصا، للطقوس الدينية والعادات والتقاليد، لأنها في نظره تقرب بين أفراد المجتمع، وتعزز أواصر الوحدة والتضامن والتكافل فيما بينهم، وذلك ما سيؤدي في الأخير إلى سيادة القانون الأخلاقي، ومصدره هو الله، أو السماء، وهو قانون منزه عن التغير والتبدل:" والقواعد الأخلاقية عند كونفوشيوس وسط بين

---

41 ـ هالة أبو الفتوح أحمد: **فلسفة الأخلاق والسياسة، المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس**، دار قباء، القاهرة، 2000، ص 143.

42- المرجع السابق، ص 788.

43- حسن شحاتة سعفان: **الكتب الخمسة لكنفوشيوس** ، مرجع سابق، ص 786.

الإفراط والتفريط، لأن الطبيعة الإنسانية تقوم على عنصرين: الذات الإنسانية الحقة أو الذات المركزية أو الموجود الأخلاقي كما يسميه كونفوشيوس، ثم الانفعالات التي تستيقظ في النفس الإنسانية"[44]، ولا يتحقق الانسجام الداخلي إلا إذا توازن حدا النفس الإنسانية، وفق مبدأ الوسط الذهبي الذي يقول به أرسطو، فلا مغالاة ولا تهاون.

ولتراث أسلافه وقع خاص على نفسه وعلى المجتمع، لذلك يرى كونفوشيوس بأن الانسجام لا يتم إلا إذا وافق الجين مبدأ الـ(لي)، وفي حالة التعارض فإن "لي" يصبح غير حقيقي، و"لي" :"تعني الدين، وتعني المبدأ العام للنظام الاجتماعي، وتعني كيان الممارسات الاجتماعية والأخلاقية بأسره... كما أنها تعني الطقوس والاحتفالات"[45]، وقد تعني أيضا العلاقات التي تربط أفراد المجتمع بعضهم ببعض وقد أسلفنا الحديث عنها فيما تقدم.

وشدد على مبدأ آخر سماه "ييYi" ويقصد به "الاستقامة Righteousnesse" ويقول فيها:"ينظر الرجل الأسمى إلى الاستقامة Yi باعتبارها جوهر كل شيء، وهو يلتزم بها بحسب مبدأ آداب المجتمع(لي Li) ويبرزها في تواضع، ويمضي بها إلى نهايتها في إخلاص، إنه حقا الرجل الأسمى"[46].

يقوم المجتمع في نظر كونفوشيوس على قاعدة الطبقات، إلا أن هذه الطبقية ليست كغيرها من النظريات التي تجعلها حقا طبيعيا كما فعل أرسطو مثلا، أو طبقية مغلقة، وإنما طبقية مفتوحة، بإمكان أي فرد أن يكون في أي طبقة شاء، فقط يتوقف الأمر على مؤهلاته الفطرية والمكتسبة، والعدل يقتضي أن لا يكون الناس على نفس الدرجة، أو في طبقة واحدة.

ولا يستقيم المجتمع ولا السياسة في نظر كونفوشيوس إلا من خلال المبادئ التي تقدم ذكرها:"لي" و "هيساو" و"يي" التي تفضي جميعا إلى تجسيد شخصي للفضيلة، الأمر الذي سيسفر عن مجتمع منظم خير تنظيم، وليس هناك تمييز حاد هنا

---

[44]- المرجع السابق، ص 788.
[45]- جون كولر: **الفكر الشرقي القديم**، مرجع سابق، ص 338.
[46]- المرجع نفسه، ص 341.

بين الأخلاق والسياسة، فإذا كان الناس صادقين مع أنفسهم، ويتسمون بالإخلاص، فإنهم سيجسدون الفضائل المختلفة، وإذا قام كل شخص بهذا فمن المؤكد أنه ستكون هناك حكومة جيدة ونظام اجتماعي تعمه السعادة"[47].

الخاتمة ونتائج البحث:

نخلص في الأخير إلى أن الشرق الأقصى القديم، قد عرف أسلوب التفكير الفلسفي، القائم على التأمل النظري، محاولا بذلك تشخيص أسباب الانحطاط، الذي جرته أطماع السياسيين وفساد أخلاق المجتمع، وقد اتسمت هذه الفلسفة بصبغة إنسانية قبل سقراط. ذلك أن النزعة الإنسانية كانت موقف كونفوشيوس قبل سقراط (ولد سقراط سنة 469 ق م، وتوفي كونفوشيوس سنة 479 ق م، أي قبل ميلاد سقراط بعشر سنوات)، فنجد كونفوشيوس قد عمد إلى إصلاح المجتمع وإصلاح السياسة، من خلال ممارستها وفق مبادئ أخلاقية، وأن يبتعد الحكام عن جعل السياسة حقلا لتحقيق أطماعهم الشخصية وتلبية رغباتهم الفردية.

كما تتضح النزعة الإنسانية لدى كونفوشيوس في فكرة الطبقية المفتوحة، حيث أن الطبيعة لا دخل لها في عملية التصنيف إذ الفرد بإمكانه أن يعتلي المراتب صعودا بعمل الخير والتزام الفضيلة، كما يمكن التقهقر إلى الطبقات الدنيا إن هو جانب عمل الخير وهجر الفضيلة، على عكس أرسطو الذي يرى أن عدم قبول العبد أن يكون عبدا هو خروج سافر عن قوانين الطبيعة.

إلى جانب ما سلف يمكننا أن نضيف فكرة الدولة المثالية التي نادى بها كونفوشيوس من خلال المبادئ التي سلف ذكرها، وهو بذلك يكون قد سبق كل الفلاسفة الذين أسسوا فلسفيا لدول وجمهوريات مثالية، على غرار أفلاطون، والفارابي، والسير توماس مور...

ويمكننا حصر ما تقدم في النتائج التالية:

- الفلسفة كتعريف نتاج يوناني أما كممارسة فهي طبع إنساني.
- الفلسفة في الشرق الأقصى القديم وليدة بيئتها.
- استطاعت الطاوية أن تجد إجابة لفكرة الثنائية، من خلال القول بفكرة الين واليانغ أو النقيضين المتناغمين.
- موقف كونفوشيوس من المرأة سلبي وغير عادل لأنه عمم الحكم من خلال حالات أقل ما يقال عنها أنها شاذة.
- اهتمام كونفوشيوس بالتراث يعكس روحا محافظة لديه.
- دعوة كونفوشيوس إلى أخلقة العمل السياسي.

[47]- المرجع نفسه، ص 342.

قائمة المصادر والمراجع:

1- ابن منظور: **لسان العرب**، المجلد الخامس، الغين-اللام، ج39، باب الفاء، ص 3451، دار المعارف، القاهرة.
2- هالة أبو الفتوح أحمد: **فلسفة الأخلاق والسياسة، المدينة الفاضلة عند كونفوشيوس**، دار قباء، القاهرة، 2000.
3- هـ،ج،كريل:**الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي تونج**، ترجمة:عبد الحميد سليم،الهيئة المصرية للتأليف والنشر، 1971م.
4- أبو علي بن سيناء: **الإشارات والتنبيهات**، القسم الأول، شرح: نصر الدين الطوسي، تحقيق: سليمان دنيا، دار المعارف القاهرة، ط 3.
5- أندريه لالاند: **موسوعة لالاند الفلسفية**، ترجمة: خليل أحمد خليل، المجلد الأول A-G، منشورات عويدات بيروت، باريس، ط2، 2001.
6- بيتر كونزمان وآخرون: **أطلس- dtv الفلسفة**، ترجمة: المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، ط2، 2007.
7- تشارلز موريس: **رواد الفلسفة الأمريكية**، ترجمة: إبراهيم مصطفى إبراهيم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 1996.
8- جمال المرزوقي: **الفكر الشرقي القديم وبدايات التأمل الفلسفي**، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط 1، 2001.
9- جميل صليبا: **المعجم الفلسفي**، ج 2، من (ط) إلى (ي)، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982.
10- جون كولر: **الفكر الشرقي القديم**، ترجمة: كامل يوسف حسين، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1995.
11- حسن شحاته سعفان: **الكتب الخمسة لكنفوشيوس**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، 1995.
12- علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني: **معجم التعريفات**، تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، مصر.
13- عمار الطالبي: **مدخل إلى عالم الفلسفة**، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006.
14- عمر التومي الشيباني: **مقدمة في الفلسفة الإسلامية**، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990.
15- لاوتسه/تشوانغ تسه: **كتاب التاو**، ترجمة ودراسة: هادي العلوي، دار الكنوز الأدبية، بيروت، لبنان، ط1، 1995.
16- محمد عبد الله الشرقاوي: **مدخل نقدي لدراسة الفلسفة**، دار الجيل بيروت، مكتبة الزهراء، جامعة القاهرة، ط2، 1990.
17- ناصر سيد أحمد وآخرون: **المعجم الوسيط**، دار إحياء التراث العربي، للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 2008.
18- هـ، فرانكفورت وآخرون: **ما قبل الفلسفة، الإنسان في مغامرته الفكرية الأولى**، ترجمة: جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1980،2 .
19- هوستن سميث: **أديان العالم**، ترجمة: سعد رستم، دار الجسور الثقافية، حلب، سورية، ط3، 2007.
20- ول ديورانت: **قصة الفلسفة**، ترجمة: فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ط6، 1988.
21- http://www.confucius.org/lunyu/ad0101.htm
22- Hegel G.W.F : The Philosophy of History, translate by : J. Sibree.M.A, Batoche Books, Kitchener,Ontario, Canada, 2001.